

إنساني الخصال.. ليبرالي الفِعال.. وطني السياسة.

أستاذ التاريخ والإعلام الحديث والمعاصر المشارك
جامعة ذمار - اليمن

د. أمين محمد علي الجبر

عندما نكتب عن الكبار من العلماء فإننا - قطعاً - نصاب بالارتباك نوع ما ، ويعترينا شعور بالقصور في الغالب، ليس لإدراكنا المسبق ان من نكتب عنهم اكبر من مجرد ترميز اللغة وحسب، امّا لإيماننا المطلق انهم فوق الوصف ، واننا مهما اجتهدنا سنظل عاجزين عن التعبير بالشكل الذي يليق بمكانتهم .. لكن حسبنا اجتهاداً اننا نحاول، رغم العجز التعبيري وطغيان الابوية العلمية، ان نفرق - منهجياً - بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي، كي نصل الى مقارنة موضوعية في الكتابة عنهم .

فالبروفيسور/ حسين بن عبدالله العمري يتسم بثلاثية قيمية/ علمية تتركز في: (نبالة أخلاق، عظمة تواضع، غزارة علم)، تشكل سمات أساسية في شخصه، إن لم تك لازمته السيكلولوجية، وسجيته الطبائعية الأكثر ملاحظة وحضوراً، والتي ترقى به نحو السمو الإنساني والمجد العلمي - الأخلاقي، بكل ما للكلمة من أبعاد ومعاني. فمنذ الوهلة الأولى، وأنت تتشرف بالتعرّف عليه، سرعان ما يأسرك تواضعه الجم وتبهرك تلقائيته اللا متكلفة، والتي - قطعاً - تخفي وراءها إنساناً عالماً بل عالماً إنساناً، إن صحة العبارة. الأمر الذي يجعلك تستذكر متأملاً، المقولة التي فحواها: «كلما ازداد المرء علماً ازداد تواضعاً»، لتجزم، من ثم، ان هكذا انسان صفاته، لا ريب، انه نتاج ثقافي، بل سليل، لبیت طهر وأسرة علم وعائلة نبالة ليس سوى... فعندما يصبح الاعتزاز بالنفس ثقافة والإباء والشموخ سجية يكبر المرء في عيون الرجال لا سوى، ويتعمّق في نظر الأمة لا محال، ناهيك إذا ما صار الزهد والتواضع سمة غالبية في تكوينه السيكلولوجي، والبساطة والتلقائية سجية على طبعه وأخلاقه، فانه بالتالي يصبح مثالا خالداً، يستحيل نسيانه ، ونموذجاً إنسانياً رائعاً، قلما تجود الحياة بتكراره . ويغدو من ثم (سلطان وحده)، يصعب تجاوزه ويتعذر تجييره، ولا يضيره قائل ولا ينتقصه حاقـد . بل يصبح عظيماً من الرجال، وإن أعرضت عنه الدنيا حيناً وعاكسته الحظوظ أحيان، إذ ليس للحسابات المادية -في هكذا حالة - أي معنى ولا لمعادلة الربح والخسارة أي قيمة إلا في عقول القليل من السطحين والبسطاء ، فالإنسان (موقف) كما يقال وحسب . بل مبادئ وأخلاق ليس غير. تكمن عظمتة الحقيقية في ذلك وفي عطائه وأخلاقياته وما دونها فزيف وهراء. وتلك سمات العظماء وحقائق الرجال الأصلاء لا يدركها إلا ذو لب ولا يستعذبها إلا من يفقه معانيها . أنه، وبلا مرأ استاذي الفاضل أ.د. حسين بن عبدالله العمري، والذي يتجلى بحق علما من اعلام الحركة الفكرية والعلمية القلائل في اليمن، والذي اثبت بأخلاقه العالية وغزارته

العلمية ان الزعامة الحقيقية هي تلك التي توفر لصاحبها إعجاباً وحباً دوماً أي مقابل ودوماً ترهيب وترغيب، وليست تلك المبنية على النفعية وشروط امتلاك القوة والثروة المفضية بالضرورة إلى الاحتواء وشراء الولاءات واقتسام النفوذ وتوزيع المغنم . وهو ما يتمتع به استاذنا الكبير بين زملائه وفي أوساط مجتمعه، ويحظى به بين محبيه ومجالييه، حيث نال علميته وبنى وجاهته من تلقاء نفسه دوماً الاتكاء على وهم السلطة المركزية والاستقواء بها . ودوماً حاجة لسياسة الزيف والملق التي اعتادها ومارسها الكثير من أقرانه؛ الأمر الذي حال بينه وبين الكثير من المناصب الحكومية التي عزف عنها مؤخرًا، وانعكس، من ثم، على علاقاته الواسعة ، بل على فلسفته للحياة برمتها، تجلت في تعامله الإنساني الراقى مع الكل المتعدد والمتنوع، وفي تعااطيه الواعي مع منظومة العمل السياسي والحزبي، التي تعامل معها من على مسافة متساوية، جعلته يعيش بمنأى عن تجاذب السياسة غير المسئولة وجدلها السياسي العقيم . تلك الخاصة التي شكلت - في اعتقادنا - الإرهاصة الأولى لأفقه السياسي، والتي ظلت لازمته الفكرية بل سمته الليبرالية التي من خلالها تعامل ونظر للعالم والأحداث وعاش مدرّكاً لواقعه وفاقهاً لتجليات محيطه .

ولعلّ أكثر تلك المواقف تجلياً لموقفه من مكونات العمل السياسي وعلاقاته المتنوعة بالأحزاب والتي سيجها بحدود أصبحت معها غير قابلة للتجسير والمتاجرة ، حيث لم يبد انحيازاً أو تعصباً لأي منها باعتباره يمثل مرجعية علمية ، لا ينبغي له التعامل بمقتضاياتها السلبية فقد أدرك أن التعصب الحزبي والجهوي يعد نقيصة سياسية بل وعلمية تحط من مكانة صاحبها وهو ما ترجمه عملياً في كل مسؤولياته التي نالها عن جدارة واستحقاق، لاسيما تراسه لمجلة الثوابت وتحديد سياستها، والتي تجاوز بها المفهوم الضيق للحزب وكذلك التمثيل ، برغم أنها صادرة عن الحزب الحاكم آنذاك . وهذا في اعتقادنا يمثل ذروة النضوج والواقعية السياسية اللتين تحلى بهما ومثلا سر نجاحه الذي نال به حب الجميع ليس غير..

إن ا.د. حسن بن عبدالله العمري شكل - بحق - قامة علمية متكاملة. كما مثل زعامة سياسية - اجتماعية من نوع خاص قلما نجد نظيراً لها . فقد صنع زعامته أو بمعنى أدق حاك وجاهته في قلوب محبيه من تلقاء نفسه معتمداً على مؤهلاته الذاتية وخبراته العلمية الواسعة التي لا يتسع المجال لحصرها . وعلى أنفته وكبريائه ، بل باعتزازه المفرط بالنفس ، لا على الاتكاء برسمية السلطة أو بالإرث الاجتماعي أو القرابي كما هو المعتاد . وهو ما حال بينه وبين الكثير من المناصب الحكومية التي زهد عنها، لاسيما في أيامه الأخيرة، بحسبانها هبات سياسية وأعطيات تمنحها ثقافة الزيف والملق، وعدّها - كما الكثير من الشرفاء - من منتقصات النزاهة والوطنية بل الرجولة والشهامة .

فثمة رجال استثنائيون تصنعهم الأحداث وتصلقهم المواقف ليكونوا، من ثم، اقدر على فقه الحياة وتصويرها ذلك الواقع الذي نحلم به مثاليات تؤطر الأذهان وقيم تسيج الأخلاق.

وتلك نعمة لا يلقاها إلا قلة نحسبه واحدا منهم، بل وفي طليعتهم. فقد كرس جل حياته لقيم الخير والحق والسلام ، ونذر نفسه لخدمة العلم وطلابه بل وجاد بماله ووقته في سبيل المعرفة ومجالاتها، وان كانت ثمة استثناءات فرضتها الظرفية السياسية المتقلبة المزاج فرضت عليه حيناً. كما عهدناه وفيما مخلصا لوطنه معتزاً بنفسه مكتفياً بحقه ، تعز عليه نفسه أن يمد يده إلى ذوي السلطان أو إلى نافذ ، وان كان ذلك في متناول يديه ، وهو ما وسع - في اعتقادنا - مساحة الحب والتقدير له في قلوب أصحابه ومحبيه ، وزاد من قدره وشهرته الواسعة على مستوى الوطن كله. بل محيطه الاقليمي والدولي على حد سوى.. وكل ذلك يرجع في اعتقادنا إلى اكتفائه الذاتي واعتماده بدرجة أساسية على مؤهلاته الذاتية وموارده الخاصة كما ذكرنا آنفاً. وعلاوة على ذلك فانه يتسم بخاصية أخلاقية نادرة وهي قدرته الفائقة على استيعاب كل فرقاء السياسة والثقافة، إما مشجعا أو محفزا أو مؤازرا، الأمر الذي يجعل من الجميع يشعر وكأنه في صفه، إن لم يكن مرابطا معه. وهو بهذا، إلى جانب إلمامه الواسع بمجريات الأمور والأحداث واستيعابه الواعي لها، يشكل محط التقاء لكل ألوان الطيف السياسي والفكري على حد سواء.

لقد علمنا أستاذنا الكبير كيفية الحياة للعلم وبالعلم، كما علمنا، بمواقفه الشجاعة وقيمه النبيلة معنى الإباء والشموخ ومعنى الكرامة والاعتداد بالنفس، إذ انه لا بقاء في هذه الحياة إلا لثقافة القيم والاخلاق. فالفناء يُغَيَّبُ كل عزيز وثمان، كما يغادر الحياة كل ذي حيوات يدب على الأرض . وتلك حتمية الحياة الفانية ، وناموس الحقيقة المغيبة التي لا تغادر صغيرا ولا كبيرا . فلم يبقى في هذه الحياة من الفعل البشري سوى الآثار والذكريات التي تصبح بفعل دينامية التطور صيرورة تاريخية تختزن البنى والقيم التي ينتجها الإنسان ، وتراكم الخبرات والتجارب الحياتية . ليتوارثها الخلف عن السلف ، و يضيف إلى قاموسها كل ذي لب وسعة أفقٍ كلٍ بحسب طاقته واهتماماته . لتكتسب من ثم صفة البقاء والديمومة ، كما تصير ثقافة اجتماعية متجذرة ومثاليات قيمة محفورة في الذاكرة الجمعية . ثقافة تكرس معيار الأفضلية والوجاهة الحقيقية لمن يجسد معانيها ويتمثل أخلاقياتها لا سوى .

غرس فينا - تلاميذه - الكثير من القيم النبيلة التي لا حصر لها، وتعهدنا بالرعاية والاهتمام والتوجيه العلمي السليم، بغية إكسابنا كل معاني الفضيلة العلمية والصفات البحثية الحميدة، وتهذيبنا على مقتضى تلك القيم والتي - حتما - علمتنا الشيء الكثير وشكلت بالنسبة لنا مرجعية دائمة الحضور دائمة التجدد نعتز بانتمائنا - فكريا - إليها ، ونفتخر بتوحدنا ثقافة معها . علمنا معنى الحياة للفضيلة للحياة للقيم والعيش لها وبها . علمنا إن الزعامة الحقيقية هي في احترام وثقة الناس والانحياز إلى قضاياهم العادلة وليس في التعالي والاستقواء بالسلطة والثروة . علمنا أن الوجاهة سلوك الفضلاء وثقافة النبلاء لا عريضة الخيلاء ومسلقيات الجبناء ، وان بقائنا وديمومتها يكمن في تمثل هذه القيم والصفات والتخلق بها دون سواها . علمنا أن ثقافة الزيف

والمُلِق والاستجداء السياسي لا تستوطن إلا في البيئات الحاضرة للاستبداد والقابلة للتعايش معه ،
وان اللحظة التاريخية الجميلة والفاصلة لا يصنعها إلا الرجال وحسب . علمنا أشياء جميلة لا حصر
لها . اقل ما نقول حيالها حسبنا معاهدين اننا سنبدل قصارى جهدنا لتمثلها وتجسيد مضامينها
ما استطعنا الى ذلك سبيلا.

على اية حال فان البروفيسور/ حسين بن عبدالله العمري مثقف موسوعي واكاديمي من
الطراز الكبير، وهذا الكتاب يتناول جانباً من نتاجه المعرفي سواء في مجال التدوين التاريخي
او تناولاته الفكرية عن رواد حركة الإصلاح والتنوير في اليمن (= الشوكاني امودجاً)، فضلا عن
التطرق لجهوده العلمية في تحقيق المخطوطات التاريخية.. والوقوف عند افقه الفكري والسياسي
، وقراءة لبعض كتاباته عن الحكم العثماني لليمن .. وكذلك العلاقات اليمنية الاوربية في القرنين
الثامن والتاسع عشر الميلاديين في ضوء أدبياته.. ليخلص الى ابراز ملامح الحياة الفكرية في اليمن
من خلال كتبه.